التصوف فى الاسلام

للدكتور أحمد غلوش

رئيس جمعية منع المسكرات

حصل الدكتور غلوش على شهادة الدكتوراة بمرتبة الشرف من جامعة لندن عام ١٩٣٩ وكان موضوع رسالته ـ التصوف الاسلامى نشأته ورسالته ـ

ثم دعت الجامعة الامريكية بالقاهرة الدكتور غلوش ليلقى محاضرة اسلامية بالانجليزية ، بقاعة الدراسات الشرقية على صفوة رجال الجاليات الاجنبية لتوثيق الصلات الثقافية بين العالمين الشرقى والغربى فلبى سيادته الدعوة والقى خلاصة مركزة لموضوع رسالته عن التصوف الاسلامى نشأته ورسالته .

وقد تفضل سيادته فارسل الينا هذه الخلاصة العلمية القيمة لنشرها تباعا على صفحات مجلة الاسلام والتصوف .

إنه لأجل معرفة حقيقة التصوف أو أى علم آخر ينبغى عقلا أن يلجأ فى ذلك إلى المتصوفين أنفسهم أو أصحاب ذلك العلم فهم أقدر من سواهم على تجلية الموضوع تجلية تجلية صادرة عن خبرة لا يشوبها زيغ ولا تحريف ، وأما نقل العلوم عن غير أهلها فقلما يوصل إلى إدراكها على حقيقتها .

ولقد قرأت عدة مصنفات لفضلاء المستشرقين من الغربيين فألفيتها فى كثير من مواطنها بعيدة عن محجة الصواب ، فمن ذلك ما يزعمونه من أن الصوفية والتصوف دخيلان فى الإسلام ، غريبان عنه ، وأنهما إنما جاء بهما الأعاجم من الفرس ، قصداً منهم إلى تشويه الدين ، ويزعمون أيضاً أن أصل التصوف يرجع إلى العلوم الآرية من الفارسية والبوذية ونحوهما ، ويقولون غير ذلك من المزاعم التى لا أصل لها .

فالتصوف ، وإن كان لبعض الفرس المسلمين شأن كبير فى تدوينه وحمل لوائه فهو لا يمت إلى المبادىء والمذاهب الآرية أو البوذية بأدنى سبب . وشتان ما بين الناسك البوذى الذى يزعم أنه بسلوك طرق خاصة من الرياضة وتهذيب النفس ينمحى عنه فى النهاية وصف الآدمية ويصبح بوذاً بنفسه أى إلهاً قد انحلت عنه صفات البشرية ، وبين المسلم المتصوف الذى يعبد الله وحده طبقاً لأحكام الإسلام ومبادىء الدين الحنيف ، ثم هو يقوم فوق الفروض المقررة بأنواع من الرياضات الروحية المشروعة

المسنونة أساسها الزهد والورع والتقوى ، وغايتها أن يصير بها أهلا للفوز برضوان ربه ، والدخول فى حضرته ، وتذوق طعم الإيمان بالوجدان .

وكثيراً ما خلط المستشرقون بين المتصوفين وبين المشعوذين ممن يأتون بما يشبه السحر وضروب الأحاجى ، ويعرفون عندهم باسم أصحاب الأسرار الخفية ، وترجع أسباب هذا الخطأ ، إلى أن المتصوفين كانوا ولا يزالون يعرفون بأهل الباطن وأرباب الأسرار الذوقية ، فظن أولئك المستشرقون أن أسرار الصوفى هى أمور خفية ، يحرص على حجبها عن أعين الناس ، كما هو الشأن عند أهل الشعوذة ، مع أن حقيقة معنى الأسرار عند الصوفيين ، إنما هى الحقائق التى تنطوى عليها ظاهرات الأشياء ، والحكمة التى يتذوقونها من القيام بالأحكام والشرائع . فهذه الأذواق والمواجيد لايستطيع الصوفى أن يعبر عنها لأحد لا لأنه يريد إخفاءها عن الناس ، بل لأنها فوق متناول الوصف والبيان ، إذ هى أمور ذوقية لا تعرف إلا بالذوق والوجدان . ومثلها كمثل حلاوة سكر القصب ونحوهما مما لا سبيل إلى إدراكه بغير التذوق .

ولئن كان من السهل على الفقيه والمحدث وكل عالم أن يشرح لغيره الفقه والحديث والعلم الذى أصابه ، فإنه من العسير المتعذر أن يبين لعامة الناس أسرار الأنوار القدسية ، والفيوضات الربانية التى تفيض على قلبه ثمرة عبوديته ، وإقباله على ربه ، ورياضاته الروحية .

على أنه مما يؤسف له حد الأسف ، وجود طوائف من الناس فى الشرق ينسبون أنفسهم إلى الطرق الصوفية ، وما هم منها فى شىء ، وهؤلاء قد يأتون بضروب من الهمهمة والتمتمة والإيحاء الذاتى ، ويركنون إلى التنجيم والطوالع والجفر وادعاء معرفة الغيب ، فكانوا بذلك نكبة على المتصوفة ، وسبباً دعا بعض المستشرقين إلى الحملة على طريق التصوف ، كما دعا آخرين إلى القول بأن التصوف ليس فى شىء من الدين . بيد أن من يدرك سنة النمو لابد أن يعرف أنه كثيراً ما يوجد إلى جانب النباتات النافعة والأعشاب الصالحة حشائش أخرى تنمو حولها ولا مندوحة من استئصالها حتى لا تعدو على النبات الطيب فتفسد عليه أمره .

ولئن كان كل متصوف لابد أن يستمد قواعد سلوكه الروحى من مبادىء الاسلام وتعاليمه الصحيحة ، فهناك فرق كبير بين المسلم الصوفى والمسلم العادى ذلك بأن إيمان الأول إيمان تحقيقى ذوقى ، فى حين أن إيمان الثانى يغلب أن يكون تقليدياً وراثيا ، انحدر إليه من الآباء أو جاءه من طريق التلقين أو التعليم أو أصابه بحكم الوسط

والبيئة التى يعيش فيها دون أن يعرف السر فى ضرورة اعتناقه لهذه أو تلك من المعتقدات الدينية التى لابد منها لنجاته فى الآخرة . وقد يظل القلب تخامره الشكوك والريب فى كثير من المعتقدات . ويظل العقل يطالب صاحبه بوضع حد لها والتخلص منها . ولهذا كان لا غنى لسالك طريق التصوف عن شيخ خبير بمفاوز الطريق المؤدى إلى تذوق حلاوة الايمان والاطمئنان إلى صحة السير على أن يكون هذا المرشد أو الخبير هو الآخر قد سلك طريق التصوف على يد شيخ آخر سبق له سلوكها وأصبح قادراً على هداية غيره إليها ، كراكب البحر يريد الوصول إلى بلد بعيد فلا مندوحة له من الاسترشاد بربان ماهر يقدر على أن يقود السفينة وركبها إلى ذلك البلد فى أمن وسلام . ومن ثم نشأت طائفة مشايخ الطرق والمسلكين فيها لارشاد المريدين إلى الطريق حتى لايضلوا السبيل ، وكما أن أطباء الأجسام لابد من الاستعانة بخبرتهم على شفاء العلل والأسقام ، فكذلك لابد لمرضى القلوب من الاسترشاد بالمشايخ للتخلص من أمراض القلوب .

ولابد لمريد الوصول إلى الله تعالى عن طريق التصوف من مجاهدة نفسه وتصفية باطنه من أدران الشهوات الحيوانية والملاذ الجسمانية فضلا عن البعد عن الوقوع فى الذنوب والخطايا مما نهى عنه الشارع الحكيم وذلك لا يتم له إلا بإرشاد شيخ عارف بأمراض القلوب وكيفية تطهيرها من بوائق الملاذ والشهوات ، وبذلك يتم للمريد اكتساب المعارف الربانية التى يهتدى بها قلبه ويطمئن خاطره ويسكن باله ، إذ يشعر شعوراً باطنياً أنه قريب من حضرة مولاه .

ولا يمكن البتة الحصول على شىء من الحكمة الالهية والأسرار القدسية إلا بتصفية القلب من الحظوظ الدنيوية حتى تنجلى بهذه التصفية مرآته وتصير بحيث تنعكس عليها الأنوار الروحية والفتوحات الربانية .

وعند المتصوفين أن الانسان لم يخلق فى هذه الدنيا عبثاً ولا صدفة ، وإنما خلق لغاية سامية ، وأن جسمه وإن كان خسيساً أرضياً فإن روحه شريفة علوية ، وأن جسمه وإن كان سيفنى بموته فإن هذه الروح ستبقى بعد الموت خالدة إلى الأبد ، فإذا ما تطهر المرء فى بوتقة الزهد والتقوى من أدران الشهوة والحظوظ العاجلة الفانية ، وسلك سبيل الرياضة الروحية الشرعية ، فإنه ليبلغ بذلك أسمى مراتب الرقى الباطنى ويصبح ، وقد تحولت صفاته إلى ما يشبه صفات الملائكة ، فلا يرى سعادة ولا هناءة ولا غبطة إلا فى عبادة الله والتسبيح بحمده ، فإذا أعطاه شكر ، وإذا ابتلاه صبر

ويصير ولا هم له فى الدنيا إلا طاعة مولاه حتى تصبح هذه الطاعة سجية له وغريزة فيه لا ينفك عنها بأى حال من الأحوال فلا يلبث المريد أن يرى فى كل ما أمر الدين به حكمة خفية سامية ويرى مثل ذلك فى كل ما نهى عنه الدين وعند ذلك يدرك السالك معنى قوله تعالى فى القرآن الحكيم « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

وقد تطور التصوف فى الإسلام على مدى الأجيال حتى صار علماً قائماً بذاته يسترشد به الخلق إلى سبيل الحق وتتحول به صفاتهم البشرية إلى صفات شريفة ملائكية ويتذوقون به طعم الإيمان بالقلب والوجدان .

وقد بدىء بتدوين هذا العلم وتهذيب حواشيه ونظمت مبادئه ورتبت آدابه حوالى النصف الثانى للهجرة النبوية أى نحو عام ٨٦٠ . ومع أن أبحاثه واسعة النطاق فيمكن حصرها فى ستة موضوعات أو مباحث عامة وهى معرفة الإنسان نفسه ومعرفة الله تعالى ومعرفة حقيقة الدنيا ومعرفة أحوال الآخرة ومراقبة النفس وإيثار حب الله على كل ما سواه .

كلمة تصوف :

ولما كانت هذه الفرصة لا تتسع أمامى لشرح هذه المباحث كلها أو بعضها حسبى أن أتحدث عن التصوف حديثا مجملا يجمع بعض ما تفرق من أطرافه إلى أن تتهيأ الفرصة لشرح مباحثه تفصيلا . ولنبدأ بكلمة التصوف ومن أين جاءت فأقول : إن هذه الكلمة دخيلة على اللغة أعنى أنها ليست عربية الأصل ولم أقف فى كتب الصوفية المعتمدة على رأى قاطع فى أصل اشتقاقها .

ففى المنقرقات للإمام الجنيد وقوت القلوب لأبى طالب المكى وعوارف المعارف للامام السهروردى والمنقذ من الضلال للامام أبى حامد الغزالى — وهذه أمهات كتب الصوفية تجد أن هؤلاء الأئمة جميعا كانوا فى شك من حقيقة تلك الكلمة وقد ذهبوا فى أمرها مذاهب شتى دون أن يقطعوا بصحة ما ذهبوا إليه . وعندهم أنها قد تكون مشتقة من الصفاء لأن المتصوفين يدأبون على تصفية بواطنهم من الأهواء والشهوات . وإما من التصفية لأن الله تعالى تولى تصفية قلوبهم من حظوظ الدنيا . وإما من الصوف لأنه كان الغالب فى لباسهم لتقشفهم وزهدهم فى الناعم من الثياب وإما من الصفة (بضم الصاد وتشديد الفاء) وأصحاب الصفة قوم من أصحاب رسول الله زهدوا فى نعيم الدنيا وآثروا الله ورسوله والدار الآخرة وفيهم نزل قرآن فى مديحهم

وإظهار فضلهم . وليس فى عدم قطع أئمة الصوفية فى أمر تسميه طريقتهم ما يطعن فى جلال قدرهم فإنهم قوم عمليون يعبأون بالأعمال دون الأقوال ويهتمون بتحقيق المسميات دون التعويل على أصل الأسماء .

وقد خطر لى بعد طول التفكير أن من الراجح أن تكون كلمة التصوف مشتقة من كلمة تيوصوفية اليونانية التى كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحى يعتنقه النساك والزهاد السالفون قبل الإسلام بعدة قرون فكانوا يأوون بجانبهم عن الدنيا ويلجأون إلى أنواع من الرياضيات الروحية والعبادة مما اقتبسوه من أنبيائهم ورسلهم حبا فى التقرب بالروح من خالقهم وتلقى الحكمة والمعارف القدسية منه تعالى ويؤيد هذا الرأى ما ورد فى دائرة المعارف البريطانية من أن التيوصوفيين كانوا معروفين من أزمان بعيدة وكانوا يزهدون فى الدنيا وينقطعون إلى النسك والعبادة واستنزال الحكمة الإلهية على قلوبهم . وإن هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيبا مزجيا وهما لفظ ثيو ومعناه إله وصوفيا ومعناه الحكمة . أى أن أولئك القوم كانوا بزهدهم وعبادتهم يتطلعون إلى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأسا فهناك تشابه كثير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية .

(البحث مستمر)